

مع الشاعر الكردي نالى في قصيدة له

والشاعر والانسان الحق وهو يرى اخوته البشر وقد صاروا فريسة للتخلف والدمار والتمييز الطبقي والقومي، انه يعطينا لوحة حية رائعة للتضحية ونكران الذات، حيث نجده يتمزق ويعاني بعنف وتنهشه انياب التآلم والاحتراق بسبب حبه وتعلقه بمجتمعه، هذا التعلق والاندماج هما السبب في عذابات وقلقه.. يبدأ الشاعر قصيدته:

تسالني انت عن سبب تناولى للزاد القليل
ولكن لا تتصورني جائعاً قط،
فانا اتناول الهموم..

اذن فشاعرنا هنا لا يحس بالآلام الطوى مطلقاً لانه اتخذ من الهموم والتعذب غذاء له، انه يتعذب ويغتم من أجل الغير.. وعذابات هذه ليست بمسألة ذاتية تخصه هو بالذات، انما هي من أجل الآخرين ويتجلى ذلك من خلال متابعتنا لأبيات القصيدة كاملة..

ان الشاعر نالى لا يكتفي بالتأثر وتناول جرعات الهموم القاتلة، بل يتجاوز ذلك كله ونجده يذرف الدموع في بكاء دائم مستمر، انه يُطفيء نيران عطشه بالدموع السخينة المالحة المجة واللُمى المرة من عينيه وفمه المتيبس، يتناولها وجبة تلو الاخرى..

يقول:

مياه عيني المجة ولُمى الشفاه المرة

■ يعتبر الشاعر الكردي الكلاسيكي الملا خدر نالى (1800-1856م) القمة والعبقرية والظاهرة الفريدة في سماء الشعر الكردي الكلاسيكي، سواء في اسلوبه الرائع والعذب والفني في طرح مشاعره، او من حيث جوهر ومضمون تلكم المشاعر والافكار والقضايا التي تناولها في شعره، او في اللغة السليمة الاصيلية التي جعلها طوع يديه للتعبير عما يريد.. وتتجلى قدرة وعبقرية هذا الشاعر العملاق أيضاً في عالميته واحساساته الانسانية الشمولية وشعوره بما يشعر به الآخرون من معاناة وعذابات ومسرات في أي جزء من أجزاء عالمنا الكبير هذا، لأن ما تطرق اليه الشاعر نالى في شعره تعبير عن هموم وقضايا عامة تخص الجميع مؤكدة وحدة الشعور البشري تجاه الظلم والاضطهاد باعتبار ان قضية الانسان واحدة في كل مكان.

■ انا لا أريد هنا تناول شاعرية نالى الغذة بتفاصيلها الدقيقة، ولا الدخول في تبيان أغراض شعره او تسليط الأضواء على لغته الشعرية واسلوبه ومفرداته، لأن ذلك يحتاج الى دراسات نقدية واكاديمية خاصة من شأنها ان تُعطي الشاعر حقّه وتبين مكانته الادبية في عالم الشعر الكلاسيكي، انما الذي اريده هنا هو تناول جزء بسيط من فيضان أعماقه متمثلاً في شعوره الشمولي واحساسه الانساني بالهموم البشرية المشتركة والتأثر من أجل الآخرين.. فالشاعر في القصيدة هذه يجسّد مثلاً رائعاً لما يجب ان يكون عليه الاديب

بملوححتها ومرارتها اتجرعها وجبةً وجبةً

هنا يتراءى البيت الشعري لوحة فنية رائعة يرسمها الشاعر بذكاء معبراً عنها بكلمات كردية أصيلة تُعطي اللوحة قيمة تصويرية بديعة، ويتراءى لنا الشاعر في الوقت ذاته وهو يقف تجاه حبيبته التي من الجائز أن تكون رمزاً، ليوضح مدى إعجابه وتأثره بها وحبه لها بحيث دفعه هذا الشوق العارم لكي يقول:

طالما الجديدة تُشرق هالةً على محبك

فسابقني أنا مثل الفعى على النار اكتوي المأ..

إن عملية الربط، ربط الأفعى بالجديدة تشبيه أدبي رائع، وعذابات الشاعر لهما في ذروة من القوة والعنف بحيث جعلته وهو في جحيم همومه يشعر وكأنه الأفعى المكتوية على النار تتلوى من شدة الألم ومرارة الاحتراق..

ثم يقول:

هنيئاً للمتصوفين مياه الكوثر

أما أنا فاكثفي بماء الإنسان .. أي تقبيل الشفاه..

الشاعر في هذا البيت يقترب من (الخيام) في تأكيد على نيل المسائل الآنية الواقعية الحاضرة وترك الأمور البعيدة المنال للمستقبل، ويمكن القول إن الشاعر (نالي) قد أراد بذلك الحب الإنساني، أي القبلية التي تؤخذ من الفم البشري، فهو يرتوي بها أكثر من ماء الكوثر الذي يريده للمتصوفين والزهاد..

ويقول في القصيدة:

لا شيء يُخيف المتصوف مثل عقاب يوم القيامة والاكتواء بنار جهنم، وهذا الخوف يعتبر في نظر المتصوفة شراباً لذيقاً.. وشاعرنا هنا نجده مؤكداً استمراريته في تذوق حلوه وحامضه وتناولهما سوية ..

يقول بهذا الصدد:

شرابُ الخوف ورجاء الاغيار والاحبة

حلواً كان او حامضاً .. فانا اذوقه واشربه

ثم يأتي الى تناول هذه الحياة المليئة بصعوبات ومشقات ليقول عنها، كم هي قاسية في وضع العقبات والعراقيل في طريق مسيرة الانسان؟! والشاعر حيث يمتلك هذا الحس المرهف نجده يشكو من ضربات الدهر التي جعلته يقاسي ويكابد المحن ويتحمل الصدمات والانتكاسات التي جعلت من حياته مأساةً اليمة.. وتبدو ذروة المأساة والتألم في قوله:

التواجد من دون حبيب وديار واحبة

أشدّ مرارةً من العلقم والأرقم

أنفي اتجرعُ السموم الفتاكَة القاتلة

إن الوضع الذي يعيشه الشاعر وهو يعلن أن محبته أقوى وأشدّ من المرارة ليس بشيء عادي، فهو يعاني من فقدان الحبيب وضياح الديار والبقاء في حالة كئيبة من الوحشة وهذا ما دفعه الى أن يتجرع السم القاتل الذي يراه أقوى وأشدّ تأثيراً من مرارة الحنظل. هذه القصيدة تحكي قضية الانسان أينما وجد، وتؤكد وحدة الشعور الانساني وذروة التضحية وكران الذات..

ويستمر الشاعر في قصيدته الى أن يبلغ بيت القصيد وتبيان دوافع همومه الحقيقية مجسداً فيها روعة مشاعر النبل والموقف الانساني الملتزم..

والواقع أنه شيء رائع أن يشعر انسان ما بهوم وعذابات غيره من الناس حين يجدهم غرقى في جحيم الظلم والاضطهاد وذلك تجاوزاً للانانية وسحقاً للروح المصلحية التي تبذل مواقف الخير وتقود الانسان الى اللا ابالية وعدم الشعور بالمسؤولية تجاه ما يحدث من أمور تسحق الكرامة الانسانية..

يقول في هذا البيت:

هناك أناس يغتمون لمآسيهم فقط

أما أنا فأحمل همومي وهموم الآخرين

أنه لمثل رائع وموقف مبدئي صادق، موقف يجدر بكل الناس الالتزام به .. ونرى في البيت الأخير، بيت القصيد، كيف إن الشاعر استطاع بجدارة شديداً الى وزرع حب الخير والناس في أعماقنا ونحن نتابع القصيدة، ثم كيف أنه وضع لنا مواقفه الراسخة في لوحات شعرية متناسقة عذبة، وكيف أنه تمكن من اعطائنا صورة صادقة للمواقف الجيدة، حيث أنه في نهاية قصيدته أفهمنا أنه علاوة على تقبله لحياته المليئة بالهموم والعذابات وتحرقاته من أجل الآخرين واختلافه عن الناس الانانيين الذين لاتهمهم إلا قضاياهم الشخصية ضاربين عرض الحائط هموم غيرهم.. يُرينا أنه بالإضافة الى ذلك فإنه يحمل هموم الهموم ذاتها ويتعذب من أجلها، إذ لولا قيام الشاعر بهذه المهمة والتخفيف عن عذابات الهموم نفسها لاضطرت هذه الهموم في النهاية الى نهش البشرية وتمزيقها..

يقول في بيته الأخير:

يقول الهمُّ :

لولا مأساة (نالي) لي

لاضطرت لآلتهام البشر